مقالٌ
في تلقي أسلوب الاستعارة
في الكلمة الوحي والكلمة الإنسان

بقلم
محمُود توفيق محمّد سعد

ليسَ القول البلاغيّ في أسلوب «الاستعارة» إنْ في الكلمة الإنسان إبداعًا أدبيًّا وإنْ في الكلمة الوحي قُرآنا وسنة ، كالقول في أسلوب «التّشبيه » في البيانيْن ؛ لِما بيْن الأسلوبين من مفارقةٍ وظيفية اقتضت مفارقة تركيبية ودلالية ، ومن سَوى بيْنهما في منهج القول العلميّ البلاغيّ فقد ظلَم ..

وليس القولُ العلميّ البلاغيّ في أسلوب «الاستعارة» في الكلمة الإنسانِ إبداعًا أدبيًا كالقول القولِ العلميّ البلاغي في الكلمة الوحي قُرآنا وسنة .

لكلّ بيانٍ منهاجُ قولٍ علميٍّ في مدارسة «الاستعارة » فيه منبثقٌ من وظيفة كلِّ بيان ، ومقصديته ، ورافده ، فهذه الثلاثةُ ذات أثرٍ فنّيٍّ في أسلوب «الاستعارة» يفضِي إلى أن يكون منهاجُ النّظر العلميّ البلاغيّ في كلٍّ ذا خصوصية.

واستعمال مصطلح «الاستعارة» في مدارسة البيانين لا يَعنِي أنَّ «الاستعارة» فيهما سواءٌ.

 إنّا لا نكاد نستعملُ مصطلح «الاستعارة» في مدارسة بيان الوحي قُرآنًا وسنةً إلَّا على سبيل التّسامح الذي اقتضاه عجزنا الإبانيّ عن أن نخترع مصطلحًا يليقُ بواقعِ هذا الأسلوب في مدارسة بيان الوحي قُرآنا وسنة ، وغير قليلٍ من المصطلحات البلاغية في مدارستنا بيان الوحي قُرآنًا وسنّة ، إنَّما حملنا إليْها بل حملنا عَليْها عجزُنا عنْ أن نَخترعَ مصطلحات تليق بقداسته وفرادته ، وهذا وجهٌ من وجوه إعجاز هذا البيان : قُرآنًا وسنّة.

والقول بأنّ بيان الوحي على معهودِ العربِ زمن الوحي في الإبانةِ فهمًا وإفهامًا إنّما هو حقٌ مُبينٌ مكينٌ ، ولكنَّ هذا لا يَعنِي أن ننزل منهاج التّلقي لبيان الإنسان على منهاج تلقِي بيان الوحي على سبيل المطابقة التامّة .

 نحن نستهدِي ونسترشد بمنهاج تلقّي معهودِ العرب في الإبانة فهمًا وإفهامًا ، ولا ننزلُه على تلقّي بيان الوحي إنزالًا ، وفرق بيْن الاستهداءِ بالمنهج ، والتعبدّ بالمنهج .

في الإنزالِ فصلٌ لشأن المتكلم بالبيان عن بيانه ، فنتلقاه على غير ما يليقُ بشأنه ، فإذا كنتُ لا أتلقّى شعر امرئ القيس بمنهج تلقّي شعر عنترة سواءً بسواء ، ولا أتلقي شعر الحبيب أبي تمام بمنهج تلقي شِعر الوليد البحتري ، فكيف يكونُ الأمر إذنْ في تلقّي بيان الوحي قرآنًا وسنة ، بل إن لتلقّي بيان الوحي قُرآنا منهجًا يكون لتلقّي بيان الوحي سنةً خصوصية مستمدة من المفارقة بين شأن الله تعالى متمثلًا في كمال جلاله الألوهية، وجمال الربوبية، وشأن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – بشرًا رسولًا يوحى إليْه.

على الرّغم من أن كلًا من القرآن والسنة النبوية وحيٌ . وما قولي هنا إلّا في منهج التلقّي ؟

وأنت تجدُ مصداق قولي في المفارقة بيْن حالك متلقّيا عن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وحالك متلقِيًا عن سيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلّم .

****

قولُ البلاغيين في أسفارهم إن «الاستعارة» مبنيَّة على «المبالغة في المشابهة»، وأنَّ أصلَها «التشبيه»،وإنَّ كلَّ استعارةٍ صالحةٌ لأن ترجع إلى «التَّشبيه»، إنّما هو قولٌ غير مُحرّرٍ، هُو إلى «التَّسامح» أقربُ.

كلُّ محاولةٍ لإحالة « الاستعارة» تشبيهًا هي في الحقيقَة تدمير لهذِه الاستعارةِ التي لن تفهم إلا في سياقها، فإن نزعتْ من سياقها باتت عقيمةً .

مُحاولَةُ إحالةِ «الاسْتعارةِ» إلى «تشبيه» هي أقربُ ما تكون إلى محاولة إحالة "الذكر" إلى"أنثى" ، أو إحالةِ "الأنثى" إلى "ذكر" ، هي محاولة عقيم ، دمّرتْ جانبَ الذكورة إذْ أحالته فِي الظاهرِ" أنثَى" ، ولم تحقّق فيه من "الأنوثة" شيئًا، هي قتلٌ مَكِين ، وكذلك الأمرُ فِي إحالِة "الأنثَى" "ذكرًا"، لْم تُبقِ شيئًا فيه من " الذُّكورة" أو الأنوثة" . الأمرُ كمثلهِ في دعوَى إحالة" التَّشبيه" استعارةً وفِي إحالةِ "الاستعارةِ" "تشْبيهًا" .

ليست "الاستعارة" البتةَ "تشبيهًا حُذف أحد طرفيه.

هذا قولٌ لا سند له من واقع الاستعارة.

وما يُسمَى في أسفار البلاغيين من مدرسة" المفتاح" بـ"إجراء الاستعارة " هو ضربٌ من التخيّل لا واقعَ له في إبداع "الاستعارة" ولا في تلقيها .

هو سبيل يُسلك في مرحلة تقريب الأمر لصغار طلاب العلم، يجب ألَّا يتجاوزَ تلك المرحلةِ من طلب العلمِ ، فاستصحابُه في ما وراء هذه المرحلةِ أمرٌ من الإفساد العلمي والتربوي .

وسلْ أيّ شاعر فحل : أأنت فاعلٌ ذلك في استعارتك ؟

وسلْ أي بلاغِي لقِن أحوذِي ذواقةٍ : أأنت تفعل ذلك في تلقي استعارت الفحول من الشعراء ؟

لن يُجيب واحدٌ منهما أنّه يفعل .

ومن الأنكى ما يمارسه طلاب العلم في ما وراء المرحلة الأولى من طلب العلم بالاستعارة في مدارستهم الاستعارة في بيان الوحي قرآنا وسنة ،وهم يجرون استعارات الكتاب والسنةِ تسمع عجبًا إذ يسندون إلى الله - سُبْحَّانَهُ وَتَعَالَى – أفعالًا لا يليقُ بعاقل أن يحرّك بها لسانه ، بل ولا يليق به أن تخطر على نفسِه.

مدارسة الاستعارة في بيان الكلمة الوحي قرآنا وسنة علينا أن نجرِيها على نحو غير الذي نجري عليه مدارستها في الكلمةِ الإنسان الإبداعية شعرًا ونثرًا .

ذلك أن وظيفة الاستعارة في بيان الوحي ليستْ وظيفتها هي وظيفتها في الكلمة الإنسان.

إذا اجريناه في مدارسة بيان الوحي كما نجريها في الكلمة الإنسان فقد فصلنا عن ما يقتضيه شأن قائلها من القدسة والجلال .

وإذا ما كان سيدنا علي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عنه فيما رواه اين ماجه في مقدمة سننه ،واحمد في مسنده بسنديهما عَنْ شُعْبَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ أَبِى الْبَخْتَرِىِّ عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِىِّ عَنْ عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - : قَالَ :

«إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بِحَدِيثٍ فَظُنُّوا بِهِ الَّذِى هُوَ أَهْنَاهُ وَأَهْدَاهُ وَأَتْقَاهُ. »

فإنّ ألأمر أوجب في ما يتعلق بكلام الله - سُبْحَّانَهُ وَتَعَالَى .

وللقول بقية إن شاء الله تعالى

وكتبه محمود توفيق محمد سعد